

المتخيل الروائي والتاريخ: وعي الكتابة وتشظي النوع

The Novelistic Imagination and History: Writing Consciousness and Genre Fragmentation

د. وسواس نجاة

جامعة تيسمسيلت (الجزائر)

nadjetsba@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2024/12/06

تاريخ الاستلام: 2024/10/12

ملخص:

خلق حضور الظاهرة التاريخية في المحكي الروائي بعض الجدل وبعض الأسئلة، بعضها عام وبعضها خاص بداية بمسألة إن كان الروائي العربي المعاصر يعاني أزمة موضوعات فلم يعد يستطيع التعبير عن نفسه وهويته الفردية والجماعية اضطرتة إلى العودة إلى التاريخ والكتابة على منواله وملء فراغاته، أم أن الأمر متعلق بكبت يسعى الروائي إلى البوح به من خلال الظاهرة التاريخية إما خوفا من سلطة ما أو هربا من واقع ما، إذ إن الخلفية السياسية كانت الوازع والحافز الأكبر لمثل هذه العودة إلى وراء تاريخا حيث على أن هذه الخلفية كانت الخلفية الجامعة لكل الروائيين المانعة لهم من الخوض في غمار بعض الموضوعات والبوح أو الاعتراف بما يعانيه الوعي الفردي والجمعي العربي؟

الكلمات المفتاحية: السرد التاريخي، الرواية، التاريخ، الوعي.

Abstract:

The presence of the historical phenomenon in the narrative created some controversy and some questions, some general and some specific, starting with the question of whether the contemporary Arab novelist suffers from a crisis of topics and is no longer able to express himself and his individual and collective identity, forcing him to return to history and write in its style and fill its gaps, or is the matter related to repression that the novelist seeks to reveal through the historical phenomenon, either out of fear of some authority or to escape from some reality, since the political background was the greatest incentive and motivation for such a return to the past historically, since this background was the unifying background for all novelists, preventing them from delving into some topics and revealing or acknowledging what the individual and collective Arab consciousness suffers from

Keywords: Historic narration, novelist, history, conscience.

-تأسيس:

إن الجدل القائم بين التاريخ والتخيل في النصوص السردية العربية قديم وليس وليد الظاهرة الروائية، بحكم أن السرد العربي نشأ في ظل الخبرة بوصفها نسقا ثقافيا أسهم في تشكل الثقافة العربية القديمة وكل الأنواع السردية القديمة سواء القائمة على التخيل أم تلك التي استندت إلى التاريخ، على أن جله كان تاريخا محلى بالسرد. والحقيقة كذلك أن هذه الظاهرة -الخبرة- أسهمت كثيرا في حفظ كثير من الأخبار التاريخية في شكل محكيات وحفظ كثير من المحكيات في شكل مادة تاريخية، ويبدو للمتأمل في كثير من المرويات العربية القديمة وفي مقدمتها الأخبار والسير الشعبية على وجه التحديد أنها تاريخ محلى بالسرد أو سرد يراد توثيق مادته بالتاريخ.

وما ينبغي الإشارة إليه أيضا من الناحية الاصطلاحية أن تلك السمة التاريخية التي طبعت كثيرا من السرد في الثقافة العربية القديمة، وتحديدًا في فترة ما قبل الإسلام، حددت توجه بعض الدارسين العرب في تسمية بعض الأنواع على ما هي عليه، فتلك الأنواع بتجلياتها النصية في فترة سابقة كانت نوعا من التأريخ لبعض الحوادث العربية كأخبار الشعراء والأبطال والملوك وسيرهم، على أن سيرورتها زمنيا لم تفقدها هذه السمة كون معظم الأخبار التي حملتها المصنفات العربية القديمة لم تحمل سمات خرافية أو أسطورية عدا تلك التي تضمنت أخبار الشعراء وعلاقتهم بالجن التي عدها العرب قديما حقيقة واقعة.

في المقابل يبدو أيضا أن إيغال الرواية العربية بالاستناد إلى هذا التاريخ أثار حولها كثيرا من الإشكالات التي تتجاوز مجرد التساؤل عن سبب هذه العودة إلى إشكالات أخرى قد تتعلق بنصوص بذاتها، وعلى الرغم من أن الرواية العربية المعاصرة استطاعت أن تتجاوز مرحلة الانغلاق والأيدولوجيا إلى تجربة سعى الروائي من خلالها إلى إحداث خلخله في نظام البناء السردى للمحكي الروائي، بجعله نصا مفتحا على مختلف الفنون الكتابية وغير الكتابية، والأجناس والأنواع الأدبية بمختلف تجلياتها النصية، حيث حققت نماذج يعتد بها في تطويع الظاهرة التاريخية وتكييفها وفق الواقع الجديد وتحميلها مختلف الدلالات، الأمر الذي سمح لهذا المحكي أن يقدم مقولات جديدة أبرزها تعدد المستويات اللسانية والثقافية فيه، وتعدد مرجعياته وتمايزها بين الحكائي والشعري، الحديث والكلاسيكي، الواقعي والأيدولوجي والمتخيل.

إلا أن تلك الإشكالات ظلت تحوم حولها وتضيف سؤالا جديدا مع كل نص يُستجد، ولعل أكبر إشكالين في هذا الإطار هما مسألتا إمكانية خروج النوع الروائي -وهو يستند إلى الظاهرة التاريخية- إلى بعد ثقافي معمم قد يجعل هذا النص يتشظى ويتحول من حكايته إلى ثقافته، بغض النظر عن إن كان هذا النص قد تصرف في المادة التاريخية أم لا، ثم مسألة وصول الدلالة إلى القارئ بمختلف مستوياته الثقافية أم أن النصوص المستندة إلى التاريخي موجهة وذات مقصدية معينة بحيث تستهدف القارئ المثقف فقط، وعن هذين الإشكالين تتمخض مجموعة من الإشكالات الأخرى من بينها سبب العودة وأزمة الموضوعات والوعي بالكتابة الروائي/تاريخية والابح بواسطة التاريخ ثم سؤال الهوية بين الحداثة والتراث.

- المختلّل والتاريخ بين الوعي وأزمة الموضوعات:

مع تطور الظاهرة السردية وبروز النوع الروائي كنوع سردي استطاع أن يفرض نفسه على بقية الأنواع السردية وعلى الظاهرة الشعرية كذلك، حينما قدمت الرواية نفسها على أنها النوع الأكثر استيعاباً لبقية الأنواع وحتى الأجناس الأدبية الأخرى، يمكن القول إن النص الروائي استطاع أن يحتل موقع المركز من النقد، وأصبح تركيز النقد وإصراره على ضرورة التعامل مع هذا النوع الذي استطاع أن يزيح الشعر من رأس قائمة الاهتمامات، ويتحول إلى ديوان جديد، يحتمل ما تنتجه المخيلة في أبعادها التخيلية والواقعية والأيدولوجية المختلفة.

خلق حضور الظاهرة التاريخية في المحكي الروائي بعض الجدل وبعض الأسئلة، بعضها عام وبعضها خاص بداية بمسألة إن كان الروائي العربي المعاصر يعاني أزمة موضوعات فلم يعد يستطيع التعبير عن نفسه وهويته الفردية والجماعية اضطرتّه إلى العودة إلى التاريخ والكتابة على منواله وملء فراغاته، أم أن الأمر متعلق بكبت يسعى الروائي إلى البوح به من خلال الظاهرة التاريخية إما خوفاً من سلطة ما أو هرباً من واقع ما، إذ إن الخلفية السياسية كانت الوازع والحافز الأكبر لمثل هذه العودة إلى وراء تاريخاً حيث على أن هذه الخلفية كانت الخلفية الجامعة لكل الروائيين المانعة لهم من الخوض في غمار بعض الموضوعات والبوح أو الاعتراف بما يعانيه الوعي الفردي والجمعي العربي بالتهميش والقمع والاستبداد، إذ "يتجسد الامتداد بين التاريخي والواقعي من خلال السياسي، والسياسي باعتباره بنية تتجذر من خلال علاقة الحاكم بالمحكوم بواسطة القمع والقهر هي ما تحكم عمق الصلة الرابطة، وكأن التاريخ والواقع لا يتحققان إلا عبر سلطة الحاكم القاهرة والقامعة"¹، وهذا الأمر يقود من ناحية أخرى إلى مسألة الاعتداد بما تضمنه المحكي الروائي من تاريخ، وهل على الروائي أن يحافظ على هذا التاريخ في خضم سرده لمختيله أم أن بإمكانه التصرف فيه.

يمكن القول إن الرواية العربية وخلال العقود الأخيرة من الزمن احتلت موقع المركز من النقد العربي، ولعل الأمر راجع أساساً إلى تلك القفزة النوعية التي أحدثتها الرواية سواء على مستوى النوع أم البنية أم المرجعية، فتحوّلت إلى نوع سردي يمكن أن يستوعب كل الخطابات والأجناس والأنواع الأخرى تحت لوائه، ولم يعد النقد يتحدث عن مجرد تداخل للأنواع في الرواية بل عن ضرورة انفتاح النص الروائي ليقدم رؤى جديدة ويتحول إلى نص كوني الأبعاد، الأمر الذي أحدث علامة فارقة بين الرواية الحديثة والرواية الجديدة التي كسرت بعض الطابوهات الأدبية والاجتماعية معاً.

حيث سعى الروائيون المحدثون إلى تشييد صرح أدبي يقوم على التجريب واستثمار كل المعطيات في سبيل ذلك، مما أسهم بشكل ما في تعميق الممارسة الروائية والدفع بها قدماً نحو النضج، الأمر الذي دفع بهم كذلك إلى توظيف أشكال تعبيرية اعتمد فيها الواقع والخيال والتاريخ والموروث الأدبي كمرجعيات أساسية للوصول إلى كتابة ذات هوية وخصوصية، قد تضمن لهذا المحكي بعداً آخر أوسع من بعد العربي المحلي، وقد كان التاريخ مرجعاً

مهما ليس للكتابة الروائية فحسب بل لكثير من النماذج العربية والعالمية، ولمختلف الأنواع السردية وغير السردية، بل يمكن القول إن كثيرا من النماذج الرائدة انبثقت مواضعها من خضم تفاعلات بين المرجعيات الموروثة والواقع المعاش، ومؤثرات اجتماعية شرط تعديلها وتكييفها وما يلائم العصر ومقتضياته، الأمر الذي جعل بنية الرواية العربية تتطور وتخرج من شرنقة الكولونيالية إلى فضاء أرحب غدا فيه الروائي أكثر وعيا بحاضره وماضيه، إلا أن سؤال الهوية والتعبير عنها حاصره بين هتين المرجعيتين، هوية تسعى إلى الأفضل يخالجها الحنين إلى بعض التاريخ الزاهر المجيد وواقع يبعث بالخيبة لفرط همومه.

لم تكن العودة إلى التراث والتاريخ عموما في الكتابة الروائية عودة اعتباطية وإنما تألفت أسباب عدة لذلك، وبغض النظر عن طبيعة تلك الأسباب فإن وجه الاختلاف في هذا كله يكمن تحديدا في مدى وعي الروائي بحضور التاريخ في محكيه، إذ إن الراوي الشعبي وهو يستحضر التاريخ يقصد من ورائه غالبا روايته فحسب، وإن تدخل فيه وفي مسار أحداثه وطبيعتها، إلا أن الروائي الحديث لا يستحضر التاريخ إلا ليملاً الثغرات التي خلفها المؤرخ بما قد تمليه عليه مخيلته، فيعبر بها -وقد لا يفعل- بشكل ضمني أو صريح عن واقع أملى عليه تلك العودة.

لئن حاولنا من ناحية ما إسقاط الفكرة على الحضور التاريخي في المتخيل الروائي فإننا سنجد أنفسنا أمام واحدة من الإشكالات التي طرحتها هذه الظاهرة ممثلة في إن كانت هذه العودة إلى وراء ناتجة عن وعي بالمادة التاريخية التي استند إليها هذا الروائي، وما الذي يمكن أن تقدمه للصناعة السردية في كونها وكما وصفها عبد الله إبراهيم على أنها مواد تاريخية أعيد حبكها استنادا وامتنالا لمجموعة من المعايير التي تراعى في الكتابة الأدبية ما جعلها تنفصل عن سياقاتها الأصلية، ويعتمد الروائي إلى إدراجها في سياقات جديدة خاضعة للخيال والمجاز، وهذا الخضوع هو ما حولها إلى مادة متخيلة²، ولأن هذا الحضور ازداد كثافة في المرحلة الأخير من تاريخ الأدب العربي رأى معظم الدارسين أن الأمر تعلق بما اصطلح عليه بالتجريب الروائي، أو بتعبير شعيب حليفي "رغبة فنية تستند إلى مبدأ الاختيار القائم أساسا على وعي بالتاريخ وكيف يمكن أن يتحول إلى متخيل والجزء الذي يمكن للروائي أن يختار منه الذي عليه أن يحاكي معطياته واقعه وعصره الذي يحياه هذا الروائي"³.

إلا أن بعض أنماط التجريب تدعو إلى التساؤل أيضا إن كان الروائي العربي عاش أزمة موضوعات انجر عنها ضرورة العودة إلى ما وقع فعلا في فترات مختلفة من تاريخ البشرية، وسلخه من سياقاته المختلفة، وتأسيس نص متخيل بالاستناد إلى أنساق ثقافية خاصة بالروائي دفعته إلى تحويل التاريخ إلى متخيل، وإن بدت الظروف السياسية التي عاشتها البلاد العربية في المرحلة الأخير المحرك الأساسي للخروج من النمط التخيلي المحض إلى التاريخي، على أن تلك الفترة وما قبلها حرمت الروائي العربي من الخوض في بعض الموضوعات المحظورة والمهمشة أو التي فرض عليها القمع، لذلك اضطر إلى الوقوف عليها من خلال الظاهرة التاريخية في هدوء لا يزعج.

إن عودة سريعة إلى البدايات تظهر لنا أن جرجي زيدان عندما كتب رواياته التاريخية -مع التحفظ على كلمة رواية مع زيدان تحديدا- لم يبتغ من ورائها إحداث المتعة والأنس إلا من خلال بعض القصص كقصص الحب

والهوى التي اختارها منها ومحاولة إسقاطها على فترة من التاريخ العربي بقدر ما سعى إلى إعادة كتابة هذا التاريخ في حلة حكائية وبلغة سردية، آملاً أيضاً يجعل مما كتبه مرجعية تاريخية يمكن الاعتماد عليها لكتابة التاريخ، لذلك لم تخل كتاباته من كثير الإحالات إلى وقائع وأحداث جرت فعلاً في التاريخ العربي، لذلك لم يكن يحسن وصف ما كتبه جرجي زيدان ونشره للقراء بالرواية التاريخية بقدر ما كان ينبغي وصفه برواية التاريخ، وإعادة تمثيله على الطريقة الأوروبية التي عرفت في تلك الفترة (القرن التاسع عشر) كبير الإقبال من القراء العرب الذين أولعوا بالكتابة الفرنسية عن التاريخ الفرنسي⁴.

لذلك ينبغي في مثل هذه المواقف التساؤل دوماً إن كان الروائي العربي الحديث يعي أن ما كتبه يشبه التاريخ أم أنه تاريخ فعلاً، ولئن كان جرجي زيدان واعياً أكثر بحيث أفصح أن ما يكتبه تاريخ فإن كثيراً من روائي العربية الجدد يتسترون خلف هذا التاريخ مع أنهم عاودوا كتابته بشكل ما، وإلا فما يصنع روائي بأسماء ووقائع وأماكن حقيقية وأحداث فعلية تجلت في متنه الذي قال إنه متخيل.

يقف محمد القاضي في إحدى دراساته حول إشكالية الرواية والتاريخ من خلال رواية الزيني بركات محولاً تقصي أهم أبعاد هذه التداخل، ويبدو أن أهم إشكال وقف عليه خلال هذه الدراسة هو وعي الكتابة بالتاريخ إلا أنه لم يفصل فيها، حيث ذكر أن "الرواية التاريخية" يتجاذبها هاجسان هما الوفاء للتاريخ ومقتضيات المتخيل، فأما الوفاء للتاريخ فيحيل إلى ضرورة إقامة المشاكلة بين التاريخ والسرد، بأن تكون الأمور الواردة فيها حقيقية من أسماء وتواريخ وأماكن وأحداث كقيام الدول وسقوطها، على أن عليها في المقابل أن تحمل مشاغل راهنها وقضاياها وتأكيد صلتها به من خلال هذا التمثيل، مع المحافظة على وظيفتها الإنشائية⁵.

إن مسألة الوعي بالمادة التاريخية وإمكانية تطويعها وتمثيلها وتحويلها إلى عمل سردي يجبر الروائي على ضرورة الخروج من نسقه الخاص الذي اعتاد ألا وهو كتابة التخيل إلى نسق مختلف تماماً يمكن وصفه بتخييل التاريخ، أهم ما يميزه عموميته، فالتاريخ مادة مشتركة بين أفراد الجماعة الذين أسهموا في صنعته، والوعي الجمعي الذي أسهم في تشكيله وكتابته، لذلك يبدو فعل تطويع المادة التاريخية وتحويلها إلى متخيل أمراً صعباً، وإن اقتصر الأمر على ملء فراغات غابت عن هذا الوعي الجمعي، ووجه صعوبته يكمن تحديداً في آلية تحويله من طبيعته التاريخية إلى طبيعية مغايرة له تماماً من ناحية أولى، ومن ناحية أخرى تغيير صورته في ذهنية المتلقي من تاريخ إلى نص أدبي.

إذ يؤسس شعيب حليفي مثلاً لمسألة الوعي بالمادة التاريخية في النصوص السردية بالاستناد إلى علاقة النص بالتاريخ وقدراته على إعادة تشكيله، ودينامية المتخيل في هذا التشكيل، على أن هذا الاستحضار هونوع من التناس الذي يستند إلى مرجعية واقعية، ومن ثم تغدو مهمة الناص في هذا الإطار بناء مرجعية يتداخل فيها التاريخ بالمتخيل، على أن وظيفة هذا المرجع ليست التأريخ وإنما التأسيس لرؤيا وأفق جديدين.

ويشير حليفي إلى أن الوعي باستحضار التاريخ في المحكي الروائي يتأسس على ثلاث أركان أساسية "وهي مبادئ متداخلة يفضي بعضها لبعض، مرتبطة ببعض التلقي والنسق والسياق"⁶، فأما المبدأ الأول في هذه الثلاثية

فهو الاختيار، على أن هذا المبدأ لا يستقيم إلا باستيعاب طبيعة المتخيل من جهة والوعي بالتاريخ بكل ما يتضمنه وما يشاكل موضوع متخيله، فيختار منه ما ينحاز إليه برغبة فنية تحيل إلى إمكانية وإعادة تشكيله، وتحمله دلالات مختلفة وإمكانية إعادة تأويله في المحكي الروائي بما لا يحتمل المطابقة بينه وبين المرجع. وأما التحويل فيقتضي في تصويره تغيير الأنساق التي تنتمي إليها المرجعية التاريخية للنسق الذي يفرضه المحكي الروائي، وتحويل بنياته من طبيعتها التاريخية ودمجها ضمن البنيات التخيلية للرواية. وأما التأويل كمبدأ ثالث فيقتضي إحاطة هذا الاستحضار بما يمكن للقارئ من إشارات ورموز تأويله من خلالها⁷.

وبهذا فإن دينامية التاريخ حكايا لا تتحقق والتي يمكن الحجاج بها على مدى وعي الروائي بالمادة التاريخية الماثلة بين يديه، فلولا إمكانية تطويعه وتحمله أنساق ثقافية جديدة، على أن هذه الدينامية تجلت في الرواية العربية على مستويات متفاوتة وبقصدات مختلفة.

لذلك يمارس الروائي في سبيل من هذا الانتقاء والتحويل من سياق إلى سياق ومن خطاب إلى آخر لغاية إعادة تمثيل التاريخ سرديا عملا ينبغي وصفه بالشاق، إذ إن التاريخ مادة جامعة لها وظيفة التقرير لا تقبل أي تأويل في حين أن السرد مخيال زئبقي منفتح يحتمل كل الدلالات التي نريد إلباسه إياها، فكيف يمكن تمثيل هذا الزئبقي أن يمثل الجامد، بكل أزمنته وأمكنته وشخصه، وتحويلها من صيغتها التاريخية إلى صفة المتخيل وفق رؤيا مختلفة تفرضها مقتضيات العصر⁸، فهدم هذا التشكيل الثابت الذي صنعه الوعي الجمعي وإعادة بناء المتخيل على منواله ومن ثم محاكمته إن أجاد هذا التشكيل الجديد وأعاد إنتاجه دلالاته وتكثيفها لإعادة تأويلها يقتضي لعبة من نوع خاص لا يحيط إلا روائي متمرس في فن الكتابة السردية.

ولئن غاية الروائي من تطويع المادة التاريخية ليست التاريخ في حد ذاته وإنما المحافظة على البعد الخطابي لكل ما يمكن أن يشكل متخيلا، فإن أمر تمرير الرسالة التي يسعى إلى إيصالها يفرض عليه أيضا الاحتفاظ بالبعد الجمالي الذي يجب أن يكون عليه النص الروائي، ولئن بدت القدرة الفردية على خلق محكي راق لغويا وأسلوبيا مشبع بتاريخ جمعي، إلا أن مسألة الخروج من سطح المادة التاريخية والغوص في تأويلات المحكي الروائي لها هو ما قد يشكل الأزمة ليس لدى القارئ بل لدى المؤلف قبله، إذ ينبغي أولا العودة إلى الوظيفة التي دُون التاريخ من أجلها وتلك التي يؤديها المحكي التاريخي، فإن كانت وظيفة التاريخ تتمثل في إشباع حاجات الإنسان المعرفية بما حدث في زمن سابق، وكشف مختلف المواقف والأوضاع التي مرت بها الفئات الاجتماعية وكيف تطورت من خلالها، ما يجعلها وظيفة مسؤولة واعية بضرورة التقيد بالحقائق، فإن وظيفة المحكي الروائي التاريخي لا تعدو إحداث المتعة والألفة والأنس على غرار كل رواية أخرى مهما كانت مرجعيتها، ومن ثم ينبغي التعامل معه بالوعي نفسه الذي تأسس عليه فعل الخروج من التاريخ إلى التخيل لدى الروائي .

-المتخيل التاريخي ومسألة التوصيل:

إذا كان الخطاب أو الكلام رسالة يوجهها شخص إلى شخص آخر كان للأول نية التأثير في الثاني على حد تعبير بنفست⁹، فالرواية كذلك خطاب يوجهه فرد إلى زمرة من الناس، فكلاهما يوضع بهذا في منحنى تواصل له خواصه وآليات اشتغاله ووضعيته التواصلية الخاصة بوصفهما ضربين من التواصل مختلفين، يقومان على كفاءة واحدة هي اللغة، ولكل منهما هدف خاص به، شرط أن يتشارك أطراف الخطاب معرفة بالقواعد العامة التي تمكن المتلقي من فك هذا الخطاب في مرجعيته و مستوياته اللغوية والمعرفية المختلفة، وبهذا يغدو الخطاب ذا طبيعة قصدية الهدف منها توثيق العلاقات بين البشر، ولهذا أيضا وصفت اللغة "بأنها أبرز الأنظمة السيميائية المنظمة للعلاقات"¹⁰.

وإذا كان رومان جاكوبسون قد صاغ نموذج التواصل مشكلا من المرسل والرسالة والمرسل إليه، فإن هنالك كثيرا من الاعتبارات التي يجب أن يؤخذ بها، التي أشار إليها كثير من اللغويين المختصين بالتواصل اللساني ألا وهي مسألة انسجام الشفرة اللغوية، إذ إنه من المستحيل أن يتقاسم الباث والمتلقي الشفرة ذاتها أو أن يحملا الكفاءة اللغوية نفسها رغم اشتراكهما اللغوي، ولذلك فالحديث عن الملكية الخاصة في مجال اللغة جائز على عكس ما قال به جاكوبسون في أن كل شيء موحد فيها*، والمسألة الأخرى هي القدرة الظنية للذات والتي لا تشتغل بشكل متكافئ بين المرسل في عملية إنتاج الرسالة والمتلقي في عملية تأويلها، إذ إن الذات نفسها تعمل على توظيف هذه الكفاءة حسب الوضع اللفظي، ولذلك فكفاءة الإنتاج اللغوي مشتملة في كفاءة التأويل، لأن كفاءتنا في التأويل قاصرة عن تلك التي تقوم بالتفسير، وبهذا ينبغي مراعاة المرسل للمتلقى أثناء إنتاج الرسالة، من حيث كفاءته اللغوية والإيديولوجية والثقافية وحتى النفسية أي أن يكون نموذج الصياغة قابلا للفهم والتأويل¹¹.

بالانتقال من النموذج اليومي إلى النموذج الروائي للخطاب تبرز إشكالية التوصيل كواحدة من الإشكالات التي يجب الإصرار عليها -وبخاصة مع الرواية التاريخية-، وهل الرواية بلغتها وشخصها وفضاءاتها كفيلة بتوصيل ووضع المتلقي في تلك الخلفية التاريخية، هذا من ناحية، من ناحية أخرى تبرز إمكانيات المتلقي وقدرتها على تفكيك شفرات الرواية التاريخية وملء بياضاتها وخصوصا أن جمهورها بات يتزايد يوما بعد يوم ما يطرح من ناحية ما مسألة إن كان الخطاب الروائي الجديد الذي يستند إلى التاريخ موجهها إلى كل الفئات أم إلى الفئة المثقفة الأكاديمية أو المطلعة على التاريخ فحسب، هذه الفئة التي يمكنها فك شفراته والوصول إلى كنهه ودلالاته التي لم يصرح بها الروائي واختفى وراء التاريخ من أجلها.

ولهذا يمكن القول إن كفاءات المتلقي تساهم إلى حد بعيد في تكاملية التواصل وتلقي العمل الروائي، ووصول المقصديات، وإلا ظلت دلالات وإيحاءات هذا النص مشفرة غير واضحة، وبياضاته غير مقروءة، على الرغم من أن الرواية صيغت بالاستناد إلى التاريخ بوصفه وعيا وصناعة جمعية، ذات الطابع الدائري الذي يعتبر المتلقي طرفا فيه تتغير رداً فعله فيؤول النص كيفما يشاء، فالتواصل إذن ينطلق من المؤلف الحقيقي للعمل الروائي ليصل إلى الطرف الآخر المتمثل في المتلقي الذي لا يشترط أن يكون في الزمان والمكان نفسيهما اللذين

يحيى فيهما المؤلف وفعل الكتابة ليستطيع التأويل، فما زلنا نقرأ نصوصا كتبت في المراحل الأولى للرواية العربية ذات المرجعية التاريخية، و ما زلنا نسعى إلى تأويلها وفق الظروف التي أنتجت فيها ومقتضيات عصرنا، وبهذا يمكن القول إن هنالك علاقة جدلية توجد في الرواية - كما في أي عمل أدبي آخر - مفادها أن على المتلقي أن يفك رموز هذا المحكي وفهمه، ببعديه الحدائي والتراثي معا، وذلك بأن يمتلك كفاءات تحوله ذلك كتلك التي لدى المؤلف، وحتى دون أن تتساوى الكفاءتان، وأن على المؤلف أن يفاجئ المتلقي في كل مرة بما قد يخاتله في عملية تأويله لأحداث ومشاهد هذه الرواية، وتتوقف عملية التواصل على طبيعة النص وعلى فنية الروائي في إخراجه و قدرته على إقناع المتلقي بأن ما يقرأه ليس تاريخا وإنما تخييل، سواء أكان هذا المتلقي على وعي بهذه الخلفية التاريخية أم لا، ما يتطلب في المقابل متلقيا ذا قدرة كبيرة على الاستيعاب و التفكيك و إعادة إنتاج الدلالة الحكائية حسب ما يقرأه، والأمر وقف على الخبرات والكفاءات الاجتماعية والثقافية والمعرفية للمتلقي.

قد لا يشبه التاريخ الواقع الذي يسعى الروائي إلى التعبير عنه في كل تفاصيله، لذلك يصعب على المتلقي إقامة ذلك الإسقاط للماضي على الراهن فيجد نفسه ملزما بالفصل بين التاريخ والمتخيل الموجود بين يديه، إلا أن هذا الفصل في حد ذاته مسألة أخرى أكثر صعوبة، كيف يمكن لقارئ الزيني بركات أن يتجاهل التاريخ المصري أو لقارئ كتاب الأمير أن يتغافل عن حياة الأمير عبد القادر الجزائري، أو لقارئ أي رواية ذات مرجعية تاريخية أن يتبرأ من هذه المرجعية إن كان يحيط بها، ثم إن الأمر يزداد إذا حاول أن يقدم على قراءتها قراءة نقدية فهل عليه أن يستند إلى منهج تاريخي يؤسس فيه لهذه المرجعية، وكيف عساه يتخلص منها في القراءة الجمالية، فللمتأمل فقط في دراسة عبد الله إبراهيم "التخيل التاريخي السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية" أن يلحظ تلك الهالة التاريخية التي ظلت تحيط بالكتاب على الرغم من أن إبراهيم قدم له بتأسيس نظري يحدد فيه ماهية السرد التاريخي، ورفضه التصورات الأولى التي قال بها جورج زيدان من أن وظيفة الرواية التاريخية ليست سوى التأريخ في قالب محلي بالسرد، ومثل هذه الدراسات تقدم أكثر تصورا أوليا على طبيعة المادة التاريخية التي استندت إليها الرواية العربية.

- الرواية التاريخية وتشظي النوع:

هل حضور التاريخ في الرواية ينفي عنها صفة الحكائية؟

تعالت بعض الأصوات النقدية في الآونة الأخيرة بالقول إن خروج المتخيل الروائي من بعده التخيلي وفتح أفق جديد على التاريخ قد يخرج من دائرته الحكائية إلى نص يمكن وصفه بالثقافي، نظرا لهذه المرجعية التي استند إليها، والتي تتنافى مع طبيعته التخيلية التي استقام عليها، لذلك قالت تلك الأصوات أيضا بفكرة مفادها تشظي النوع الروائي ليحل محله نص ثقافي يعي صاحبه فيه ضرورة الاستناد وطبيعة الانتقال والتحول من الحكائي المحض إلى التاريخي المحلى بالسرد، والحقيقة أن هذا الموقف مبالغ فيه إلى حد ما، إذ إن الراوي الشعبي قديما لم يقصد يوما

أن ينقل تاريخنا من خلال مروياته فكيف يمكن للروائي الحديث أن يحول نصه من نص روائي إلى نص ثقافي يمكن لقارئه أن يجد ما ورد فيه في أي كتاب تاريخي معرفي آخر.

والحقيقة أيضا أن الحديث عن تشظي النوع الروائي أو في المقابل تجنيس الرواية التاريخية يضعنا أمام ثلاث مواقف يمكن من خلالها تبين معالم هذا الإشكال، هذه المواقف تتمثل في مسألة التعالي النصي من جهة، ومصطلح الرواية التاريخية في حد ذاته، ثم آليات وإجراءات قراءة الرواية التاريخية من ناحية ثالثة.

ومصطلح الرواية التاريخية (Roman historique) أو السرد التاريخي عموما وعلى الرغم من تداوله إلا أنه واحد من المصطلحات التي تثير بعض الاضطراب لدى متلقيه، إذ إنه يجمع بين النقيضين المتخيل والتاريخ، ما يجعلنا نتساءل إن كان تحديد طبيعة نوع سردي ما وفقا على مرجعيته أم على خصائصه الجمالية وطبيعة أحداثه فحسب، وإلى أي خانة سنصنفه ضمن الرواية أم التاريخ المحكي، والحقيقة كذلك أن هذه التسمية وإن صاحبها بعض الاضطراب إلا أنها بدت لدى البعض الآخر من دارسي الرواية العربية التسمية الأنسب للمحكيات القائمة على المرجعيات التاريخية.

لذلك فإن الدعوة إلى تجنيس الرواية التاريخية كنوع قائم بذاته هي دعوة مبالغ فيها كذلك، إذ إنها ظلت تحافظ أيضا على خصائص وأبعاد النوع الروائي عموما من حيث الحجم والمضمون وتطور المسار والنهايات، ما يجعلها لا تعدو كونها نمطا ينضوي تحت النوع الروائي غاير مرجعيته في هدوء لمقتضيات وأنساق معينة. فترى عبد الله إبراهيم يراجع مصطلح الرواية التاريخية ويستعيز عنه بمصطلح التخيل التاريخي الذي يتجاوز حدود الأنواع إلى نمط الكتابة في محاولة دمجها ضمن ما اصطلح عليه بهوية سردية جديدة، لا تجعلها رهنا للبحث في مرجعياتها، إذ إن التخيل التاريخي يقطع صلته تماما بالوظيفة التقريرية التوثيقية للمرجعية التاريخية ليضطلع بوظيفة جمالية وفنية، على أن هذا الاستناد إلى التاريخ يغدو مع التخيل التاريخي مجرد مبرر لتشكيل تلك الهوية السردية الجديدة¹².

يأتي من ناحية أخرى إشكال النص المفتوح بوصف امبرطو إيكو أو النص الجامع ثم المتعاليات النصية التي أسس لها جيرر جينات، لتؤسس نوعا مختلفا من العلاقات بين الخطابات، حيث إن العلاقة بين النصوص في تصويره تتحدد في شكلين أساسيين هما التحويل أو المحاكاة، فيتحول النص من النص الواحد إلى النص المتعدد الذي يمكن أن يضم بين جوانبه أشكالا متعددة من النصوص التي تتضارب من حيث إجناسيتها ومن حيث الوظيفة التي تؤديها داخل ثقافة ما، لذلك تضطرب مسألة الأجناسية مع بعض النصوص التي يُحدث فيها هذا التداخل نوعا من الاضطراب في تحديد إجناسيتها، وقد أحدث التداخل بين التاريخي والمتخيل في بعض النصوص الروائية بعض الاضطراب لدى المتلقي في تصنيف بعضها وتحديد تلك التي تغالي في المعطى التاريخي، فذلك التماهي الشديد بينها وبين مرجعياتها يحيل هذا القارئ إلى محاولة إحداث نوع من الإسقاطات التاريخية على هذا النص، بل إن الأمر لا يتوقف على مسألة الإسقاط فقط بل يتعداه إلى التعامل مع المادة التاريخية الماثلة فيه بوصفه متخيلا على أنها مادة تاريخية نظرا لذلك التشابه، ومن ثم يضطرب عليه تجنيس هذا النص أو تحديد وظيفته أكانت مرجعية أم شعرية.

إن انفتاح النص الروائي على المرجعية التاريخية لا يفرض عليه الاستثمار والوعي في النصوص التي تؤرخ للماضي فحسب، بل يفرض عليه نصوص الأخبار والمرويات القديمة على تعدد تجلياتها النوعية والنصية، وتشظيتها وتمزيقها في المتن الجديد، وسكبتها فيه بطريقة مختلة، لذلك كثيرا ما يستطعم قارئ الرواية التاريخية شظايا وبقايا خبر أو رحلة أو أسطورة أو خرافة ما، أو غيرها من الأنواع التي تنضوي تحت إطار الجنس السردى إضافة إلى المادة التاريخية الماثلة فيه، وهذا المزيج هو ما حقق للرواية ذات المرجعية التاريخية شقا من تداولها وتطورها في السرد العربي الحديث .

يتمظهر من ناحية أخرى إشكال آليات قراءة الرواية التاريخية في النقد العربي الحديث، في ظل التوجهات النقدية المعاصرة لقراءة النصوص السردية، وإن بدت السيميائيات السردية والسرديات البنوية كقيلة يمثل هذا الدور من القراءة فإن الحاجة إلى التأويل بدت ملحّة أيضا، لأن إعادة إنتاج المادة التاريخية وتمثيلها في مادة سردية تفرض على الروائي شحن وتحميل الصورة الجديدة دلالات جديدة مختلة ومخالفة كانت أم لا للأصل، وتفرض على القارئ فتح المجال للعملية التأويلية، ومن ثم فتح الممارسة النقدية على مختلف الاحتمالات والتأويلات التي يفرضها الواقع المعاش في علاقته بالمواقف والوقائع التاريخية السابقة التي استند إليها الروائي في تشكيل نصه، على أن الواقع العربي في مختلف سياقاته يحيط المؤول بمختلف الدلالات التي يمكن من خلالها فهم المحكي والوصول إليه، إذ إن الرواية العربية لم تستند إلى التاريخ إلا لمعالجة قضايا وإشكالات الواقع وتحديدًا في بعده السياسي .

يبدو من ناحية أخرى لمتلقي الدراسات العربية الحديثة المقدمة حول الرواية العربية ذات المرجعية التاريخية أنها أسست لنفسها توجهًا لقراءة هذا النمط الروائي، توجه تزواج فيه بين التصور البنوي والمرجعية التاريخية أيضا، من خلال حضور المنهج التاريخي فيها على أن تنطلق من تصورين هما: البعد الكولونيالي والبعد الواقعي الذي يحيل إلى ذلك الإسقاط على الواقع السياسي والاجتماعي في المجتمعات العربية، فتتزامن البحث في آليات إنتاج المعنى بالتاريخ في العملية التأويلية، ويبدو لكل متطلع لقراءات سعيد يقطين وفصل دراج وعبد الله إبراهيم وواسيني لعرج وعبد السلام أقليمون وغيرهم أنها على الرغم من سعيها إلى القراءة الداخلية للنسق الروائي إلا أنها لم تستطع الاستغناء عن التصور التاريخي في قراءتها للرواية التاريخية، ولئن كانت المرجعية التاريخية هي التي فرضت مثل هذه العودة إلى وراء من خلال المنهج التاريخي وآليات تقصيه إلا أن حضوره وإن بدا باهتا في بعضها كونها مؤسسة على البحث في آليات إنتاج المعنى وتحويره من نسقه الأول إلى نسق آخر من خلال تجليه النصي الجديد، إلا أن بعضها الآخر أوغلت فيه بداية من البحث في كرونولوجيا الرواية التاريخية وتطورها في السرد العربي من زيدان إلى أيامنا هذه وانتهاء بما تضمنته الروايات من مادة تاريخية .

إن مقارنة المحكي الروائي ذي المرجعية التاريخية لا تقتصر على البحث في مختلف التأويلات التي يمكن أن يقدمها النص فحسب، بقدر ما عليها أن تفتح على إشكالات النوع والوعي بالمرجعية والتجريب والممارسة التي فتحت أمام الروائي العربي آفاق جديدة للكتابة، وقدمت للناقد مفاتيح جديدة للقراءة، وهذا ما سعى إليه الروائي والناقد معا، فالرواية العربية حققت من الانتصار والتوسع في تشكيل وتداول هذا السرد التاريخي في الثقافة والأدب

العربي المعاصر، ما خولها لأن تكون محط اهتمام النقد والقراءة، بل يبدو لمتتبع النص والنقد معا ذلك التغير الذي حدث فيها والقطيعة التي سعى كلاهما إحداثها في التصور الأدبي والنقدي العربي .

الهوامش:

- ¹ سعيد يقطين، الرواية والتراث السردى، دار رؤية، القاهرة ط1، 2006، ص 99، 91 .
- ² ينظر، عبد الله إبراهيم، السرد التاريخي، السرد الإمبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2011، ص 06.
- ³ شعيب حليفي، مرايا التأويل، تفكير في كيفية تجاوز الضوء والعتمة، دار الثقافة، المغرب، ط1، 2009، ص 23 وما بعدها.
- ⁴ ينظر في هذا الإطار روايات جرجي زيدان التاريخية التي صرح في بعض مقدماتها بهذا الأمر .
- ⁵ ينظر، محمد القاضي، الرواية والتاريخ، طريقتان في كتابة التاريخ روائيا، علامات، ج28، م 07، 1998، ص 112 وما بعدها .
- ⁶ شعيب حليفي، مرايا التأويل، ص 24 .
- ⁷ المرجع نفسه، ص 26 وما بعدها .
- ⁸ ينظر، محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار، ط 1، 2008، ص 24 وما بعدها .
- ⁹ Voir, Emile Benveniste, problèmes de linguistique générale, T1, édition Cérés, Tunis, 1995, p 240 .
- ¹⁰ أحمد يوسف، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطاب، جامعة وهران، ط 1، 2004، ص 54 وما بعدها .
- ^{*} essais de linguistique générale, edition minuit, france, 1973, p 210, Roman Jakobson ,
- ¹¹ Voir, Katherine kerbrart Orecchionni, l'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Collin, France ,1988, p 26,25 .
- ¹² ينظر، السرد التاريخي، م س، ص 05 .

- المصادر والمراجع:

1. سعيد يقطين، الرواية والتراث السردى، دار رؤية، القاهرة، ط1، 2006.
2. عبد الله إبراهيم، السرد التاريخي، السرد الإمبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2011.
3. ¹² شعيب حليفي، مرايا التأويل، تفكير في كيفية تجاوز الضوء والعتمة، دار الثقافة، المغرب، ط1، 2009.

4. محمد القاضي، الرواية والتاريخ، طريقتان في كتابة التاريخ روائيا، علامات، ج28، م 07، 1998 .
5. محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار، ط 1، 2008 .
6. Emile Benveniste, problèmes de linguistique générale, T1, édition Cérés, Tunis, 1995.
7. أحمد يوسف، سيميائيات التواصل و فعالية الحوار، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطاب ، جامعة وهران ، ط 1 ، 2004.
8. Roman Jakobson, essais de linguistique générale, edition minuit, france, 1973.
9. Katherine kerbrart Orecchionni, l'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Collin, France ,1988.